شنقيط وإسهامها في الإشعاع الروحي والثقافي في المناطق المحيط بها

سيد أحمد ولد الدّاي*

شنقيط (وينطقها أهلها شنقيطي) مدينة تقع في وسط موريتانيا الحالية مما يلي الشمال، على هضبة ادرار (المعروفة قديما بجبل لمتونة) وما لبثت أن أعارت اسمها لكافة المناطق الصحراوية الواقعة ما بين وادي درعة شمالا ونهر السنغال جنوبا، ومناطق أزواد واتوات (في مالي والجزائر) شرقا والمحيط الأطلسي غربا، أي فيما عرف بعد «بتراب البيضان» فأصبحت كل هذه الأصقاع الفسيحة تدعى بلاد شنقيط والنسبة إليها شنقيطي.

وسأستهل كلامي بالحديث عن شنقيط المدينة لأنتقل من خلالها إلى شنقيط القطر مبرزا بعض الملامح العامة لأشعاعها الروحي والثقافي في إفريقيا والوطن العربي اللذين تشكل جسرا بينهما وعصارة لخصائصهما الإنسانية والحضارية.

---

* سفير جمهورية موريطانيا بتونس.

وستكون مفاصل هذه المداخلة (ولا أقول المحاضرة) النقاط التالية:

1 ـ لمحة موجزة عن شنقيط المدينة

2 ـ لمحة أخرى عن شنقيط القطر

3 ـ الإسلام والتعريب في بلاد شنقيط

4 ـ النهضة العلمية والأدبية في غلواء الانحطاط في المشرق

5 ـ بعض الأعلام الشناقطة الذين كان لهم دور كبير في حمل مشعل الثقافة

6 ـ شنقيط في افريقيا والمشرق العربي.

وعلى كل من يريد أن يتوسع في استجلاء هذه الملامح أن يطلع من بين عشرات الكتب التي تتناول هذه المجالات على كتب ثلاثة متوفرة في المكتبات التونسية هي:

ـ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين.

ـ بلاد شنقيط المنارة والرباط للأستاذ الكبير الخليل النحوي

ـ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور لمحمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي.

1 ـ شنقيط المدينة

أسست شنقيط الأولى سنة 160 للهجرة وكان أسمها «آبير» وهي الآن واحة صغيرة على بضعة كيلومترات شرقي المدينة الحالية. ويرى العديد من المؤرخين أن «أبير» هذه تصغير لكلمة بئر نظرا لقرب مائها من السطح، وأن هذه البئر أحدى سلسلة الآبار التي حفرها حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع في حملته الصحراوية سنة 116 هـ بين سجلماسة (جنوب

المغرب) وأود أغست (شرقي موريتانيا) لتمكين الجيوش ثم القوافل من التوفر على نقاط مياه كل ثلاث مراحل.

ولا يفوتنا أن نسجل هنا لابراز التلاحم التاريخي بين تونس وموريتانيا أن مؤسس شنقيط الأولى هو حفيد مؤسس القيروان رغم بعد الشقة بين المدينتين.

أما شنقيط الحالية فقد أسسها محمد علي جد قبيلة الأغلال ويحي الكبير الجد الجامع لقبيلة إدو علي سنة 660 هـ = 1262م بالقرب من مدينة «آبير» في قصة تناقلتها التقاليد الشفوية، لا يتسع المجال لعرضها. وما لبثت هذه المدينة أن شكلت مغناطيسا جذب إليه سكان آبير، فأصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا محوريا بين المغرب والسودان، ومركزا علميا يفد إليه طلاب العلم من كل حدب وصوب، وتتجمع فيه قوافل الحج من جميع أنحاء موريتانيا الحالية لتنطلق إلى البلاد المقدسة، مما أحاط المدينة نفسها بهالة من التقديس. ولعل تجمع الحجاج في مدينة شنقيط رغم أنها لم تكن المدينة الوحيدة في القطر إذ سبقتها كل من ولاتة وتيشيت ووادان هو الذي وحد انتماء كل الخارجين من القطر إلى شنقيط وبالتالي تم إطلاق اسمها على كل هذه المناطق الصحراوية.

ويقال إنه خرجت ذات يوم قافلة من شنقيط قوامها 32000 بعير موقرة ملحا وتمرا 20 ألفا منها لأهل شنقيط و 12 ألفا لأهل يتشيت (400 كم من جنوب شرقي شنقيط)، مما يدل على مدى العمران الذي وصلت إليه.

ونتيجة لبعض الاضطرابات والقلاقل القبلية في القرن الحادي عشر في شنقيط وقبل ذلك في تينيكي القريبة منها (40 كم) وقعت هجرات كبيرة إلى جهات أخرى من البلاد فأسست قبيلة السماسيد (بني شمس الدين) مدينة أطار وكانت فيها

المدرسة الأولى المتفرعة مباشرة عن مدينة شنقيط، ثم هاجر جل قبيلة الأغلال وأنشأوا مدارس علمية في الركيبة والحوض في شرقي البلاد بينما هاجر القاضي عبد الله بن محمد بن حبيب العلوي المتوفي سنة 1103 هـ/ 1692 م إلى البراكنة أولا ثم إلى «العقل» في الجنوب الغربي للبلاد حيث يعتبر مؤسس المدرسة العلمية والأدبية الكبرى بمنطقة الترارزة، بشهادة علماء الترارزة أنفسهم. يقول العلامة محنض بابه بن اعبيد الديماني مادحا إيدو على:

فعمم به في إيدو على وخصصن

بني شيخيا قاضي القضاة تجد مرعى

فجدهم أستاذ تا شمش كلهم

قدار تضعوا من علمه الخلف والضرعا

فيما هاجر جزء من قبيلة إيدو علي أيضا إلى وسط البلاد فأسسوا مدينة تجكجة ومدرستها العلمية التي كان من أبرز أعلامها العلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم المتوفي سنة 1233 هـ = 1739م. هذا بالإضافة إلى مدارس تجا كانت المنتقلة من تينيكي إلى الركيبة وآفطوط ولعقل والحوض واتوات وأزواد.

وإذا تتبعنا مجموعة التراجم البالغ عددها 215 في كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي المتوفي سنة 1219 هـ = 1803م وجدنا أن أكثر المترجم لهم يمتون لهذه المدارس بأقوى الصلات.

2 ـ شنقيط القطر:

يضم هذا المفهوم الجغرافي موريتانيا الحالية والصحراء

الغربية وجنوب المغرب والجنوب الغربي للجزائر وشمال مالي أي مجموعة أرض البيضان، والبيضان خليط من قبائل صنهاجة الكبرى والعرب الوافدين أولا في طلائع الفتح الإسلامي ثم في موجات هجرة قبائل بني حسان أي قبائل المعقل، يجمعهم التحدث باللهجة الحسانية وهي دارجة عربية تتخللها كلمات بربرية قليلة، وهي ببناها الصرفية. وبألفاظها تعتبر من أقرب اللهجات العربية إلى الفصحى، ساعدها على ذلك محيطها البدوي الصحراوي الذي لم يتأثر بالاختلاط باللغات الأخرى إلا في حالات قليلة.

كانت تسكن البلاد منذ العصر الحجري مجموعات بشرية زنجية أخذت تنزاح إلى الجنوب بقدوم البربر في القرون الميلادية الأولى، وما إن دخل الإسلام إلى المغرب العربي في النصف الثاني من القرن الأول حتى أخذ يتوغل في أعماق الصحراء. ولكن العرب الفاتحين وإن أثروا روحيا إلى حد ما فإنه نشأ عن عدم استقرارهم بأعداد كبيرة في تلك الأصقاع، تلكؤ قبائل صنهاجية في ممارسة الشعائر الدينية رغم إسلامها العامي في مجملها وبقيت هذه الحال حتى تأسست الدولة المرابطية في منتصف القرن الخامس الهجري على شاطىء المحيط الأطلسي قرب مدينة نواكشوط الحالية، وقصتها معروفة حيث إنها فرضت الإسلام السني في جميع المنطقة وزحفت شمالا فضمت المغرب الأقصى والأوسط حتى مدينة الجزائر الحالية ثم عبرت إلى العدوة الأندلسية فهزمت الإفرنج في معركة الزلاقة سنة 479 هـ وقضت على ممالك الطوائف ووحدت الأندلس وأخرت سقوطها أربعة قرون، وانطلق أتباعها من بني غانية بعد سقوطها على أيدي الموحدين فحكموا مدة في طرابلس وما جاورها.

وأشير هنا إلى أن بداية تأسيس الدولة المرابطية هو حج أمير كدالة الصنهاجية إلى البلاد المقدسة ومروره في عودته بالقيروان حيث اتصل بكبير علمائها أبي عمران الفاسي وطلب منه أن يرسل معه من تلامذته من يفقه أهل الصحراء في دينهم فأحاله إلى تلميذه بسجلماسة وكاك بن زلوا اللمطي فانتدب لهذه المهمة تلميذه عبد الله بن ياسين الذي بني رباطه المشهور وأسس جيشا سماه بالمرابطين.

وفي تتبع هذه الأسباب ومسبباتها، تظهر مرة أخرى وشائج التاريخ وأواصر الصلات الرحية التي تربط تونس ببلاد شنقيط.

ولم تقتصر الدولة المرابطية على الزحف إلى الشمال بل اتجهت إلى الجنوب أيضا تجاهد الممالك الزنجية الوثنية، فقوضت الامبراطورية الغانية سنة 468 هـ = 1076م ناشرة الإسلام في الأجزاء المتأخمة لها من إفريقيا السوداء.

ومن منطلق نشر الإسلام السني المالكي الصحيح شمالا وجنوبا يمكن أن نسجل بداية دور هذه البلاد في الإشعاع الثقافي والروحي في المنطقة.

ولئن عمّ الإسلام وسلوكياته وروحانيته المنطقة فإن التعريب لم يشملها إلا بدخول القبائل الحسانية الوافدة ابتداء من أواخر القرن السابع واستمرت الهجرات تترى حتى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث اكتملت في نصفه الأخير طوائف بني حسان الرئيسة وهي: الأولاد (ذرية أدي بن حسان) وبنو دليم، والرحامنة والبرابيش.

وقبل توافد القبائل العربية كانت السلطة المرابطية في الجنوب قد تحللت إذ أخذت السلطة المركزية في التلاشي بعد

موت أبي بكـر بن عمر اللمتوني سنة 480 هـ مما سهل على هذه القبـائل إمارات متعـددة، بينما حافظ بعـض الصنهاجيين على إمـارة مستقلة هي إمـارة إدوعيش، وقـد حدث في القـرن الحادي عشر الهجـري = السابع عشر الميـلادي صراع كبير في منطقة القبلة (الجنوب الغربي) بين المغـافرة الحسانيين وقبائل الزوايـا، عرف «شربية» انتهى بسيطرة العـرب الحسانيين على هذه القبـائل مما كـان له أثر كبير في اطـراحها لأسبـاب القوة العسكرية وتفرغها للعلم والـدراسة حيث تفوقت في هذا المجال تفوقا عظيما.

ومن هنا تجذر واقع تقسيم المجتمع الى ثلاث فئات هي:

1 ـ **فئة العرب:** وهي التي تحمل السلاح وتحارب، وكلمة العربي هنـا تعني فقط المحارب وحـامل السلاح لأننـا نجد في هذه الفئة بعض قبائل صنهاجية مثل إدوعيش.

2 ـ **فئة الـزوايـا:** وهي قبـائل صنهاجيـة وعربيـة (غير حسانيـة في أكثرها) تفرغت للتعلم والتعليم والقضـاء والقيادة الروحية.

3 ـ **فئـة اللحمة:** (أو أزناكـة المشتقة من كلمة صنهـاجة) وهي فئة تفـرغت للتنمية الحيـوانية ولم تهتم بشؤون الـدفاع ولا بشـؤون العلم، وكـانت تـرفـد الفئتين الأوليين بـوسـائل العيش.

3 ـ الإسلام والتعريب:

يرتبط الإسلام كما هو معروف بـاللغة العربية. لأن القرآن الكريـم أنزل بلسان عـربي مبين، ولأن جميع الجهـود العلمية اللغوية التي بذلت في القرون الهجرية الأولى كان مصبها القرآن

وضرورة المحافظة عليه وامتلاك أدوات فهمه وتأويله. ولذلك فبقدر ما انتشر الإسلام وتأصل في قلوب سكان الصحراء فقد واكبته نسب متفاوتة من إتقان اللغة العربية. غير أن الدولة المرابطية رغم أساسها الإسلامي ظلت محافظة على صنهاجيتها في لغتها وحياتها اليومية.

ولما تواردت موجات القبائل العربية على امتداد القرنين الثامن والتاسع للهجرة، كانت تجد أمامها أرضية صالحة للتعريب بفضل الإسلام، وبفضل تشابه الظروف المعيشية القائمة على البداوة لدى السكان الأصليين والوافدين، فتم الإمتزاج بين العرب والصنهاجيين بسهولة فائقة، وسادت اللغة الحسانية في التخاطب اليومي والتعامل، وإن ظلت قلة من القبائل حتى وقت قريب تحتفظ بلغتها الأصلية إلى جانب إتقانها للحسانية. بينما اندثرت اللغة الأصلية لدى الكثير من القبائل بدون أن تعرف متى تم ذلك بالتحديد ولم تتعرب اللغة فقط بل سادت نزعة واضحة الى تعريب الأنساب حيث لا نجد اليوم قبيلة ترضى أن تكون بربرية، بل لا بد لها من أن تجد وسيلة أو أخرى تربطها بالنسب العربي سواء كان ذلك النسب يرفعها إلى قحطان أو إلى عدنان.

وأهمية هذه الظاهرة تكمن في دلالتها النفسية، إذ تظهر تمسكا وثيقا بالعروبة بما يميزها من قيم وخصائص.

4 ــ النهضة العملية والأدبية في أوج عصر الانحطاط في المشرق

لئن كان الإسلام قد دخل البلاد من الشمال فإن النهضة العملية، دخلت من الشرق من جهة يتمبكتو فولاته فشنقيط

وتيشيشت وودان، ذلك أن يتمبكتو كانت حاضرة علمية مزدهرة في القرن التاسع تحت حكم أباطرة السونغاي، إلاّ أن الطاغية «سونا علي» كان يكره العلماء فاضطهدهم ونكل بهم سنة 873 هـ = 1468 م مما اضطر الكثير منهم إلى الهجرة نحو ولاته. ومن ولاته انتشرت حركة علمية في شرق البلاد ما لبثت شنقيط أن احتضنتها وأصبحت واسطة عقدها في القرن الحادي عشر واستمرت هذه الحركة العلمية في تصاعد أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر حيث بلغت أوج ازدهارها وإشعاعها.

انتشر التعليم عن طريق «المحاظر» وهي مدارس تتفاوت في مستوياتها من الكتاتيب القرآنية إلى حلقات تدرس فيها جميع المعارف المتداولة في ذلك الوقت من علوم القرآن والحديث والفقه فروعا وأصولا، واللغة العربية أدبا ونحوا وصرفا وبلاغة وعروضا بالإضافة إلى ما يعرف لديهم بالعلوم الكمالية كالرياضيات والمنطق والفلك والتاريخ إلى غير ذلك. وكانت بعض هذه المحاظر جامعات متنقلة يلازمها الطلبة عقودا من السنين ناهلين من كل المعارف متعمقين في أكثر ما يمكن منها. وكان شيوخ هذه المحاظر على مستوى عال من العلم حتى إن بعضهم كان «لا يرد لوحا» حسب العبارة المحلية أي أنه يستطيع أن يدرس كل شيء.

يحكى أن النابغة الغلاوي المتوفي سنة 1245 هـ/ 1829م كان ينتقل من محظرة إل أخرى «وكلما جاء الى شيخ إحداها أخبره أنه قدم ليدرس عنده، وعندما يسأله عما يريد دراسته يذهب ولا يعود إليه حتى أتى محظرة أحمد بن العاقل المتوفي سنة 1244 وأخبره بما أخبر سابقيه فقال له «مش» أي تقدم بالنص الذي تريد أن أدرسك إياه فألقى عنده عصا الترحال.

وقد برزت في محاظر بلاد شنقيط نزعات تحصصية ثلاث:

فكانت محاظر شرقي البلاد (الحوض والرقيبة) وتيشيت تميل إلى التعمق في الدراسات القرآنية من رسم وتجويد وتفسير وفروع الفقه الملكي. أما ودان وشنقيط وتيحكجة فكانت تهتم بالحديث والفقه أصولا وفروعا، بينما برزت أرض «القبلة» في الدراسات اللغوية والشعر، مما جعل أكثر اللغويين والشعراء الذائعي الصيت من هذه المنطقة.

والميزة الغالبة على شيوخ هذه المحاظرة هي الاعتماد على الذاكرة بحفظ النصوص الكثيرة الطويلة، ويعود سبب ذلك إلى حياة الترحال وتعذر اصطحاب الكتب في حياة البداوة والتنقل، وما تزال هذه الظاهرة لدى بعض علمائنا حتى اليوم. فالمرحوم محمد يحي بن الشيخ الحسين (توفي منذ سنوات قليلة) كان يحفظ صحيح البخاري بأسانيده عن ظهر قلب.

وميزة أخرى هي التقاء التيار العلمي بالتيار التصوفي، فكثيرا ما نجد الشيخ معلما ومربيا صوفيا. وأكبر من يمثل هذه الظاهرة الشيخ سيد المختار الكنتي المتوفي سنة 1226 هـ/ 1811م وابنه الشيخ سيدي محمد المتوفي سنة 1241 هـ وتلميذه الشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهيبة المتوفي سنة 1284 هـ / 1872م

وميزة ثالثة هذه النزعة الموسوعية في التأليف، فلا نكاد نجد مؤلفا لأحد هؤلاء العلماء إلا وهو زاخر بكل شيء ينتقل من القرآن والحديث والفقه إلى التاريخ إلى الأدب إلى شوارد اللغة، ولعل من أبسط الأمثلة على هذه الظاهرة كتاب فتح الودود في شرح المقصور والممدود للشيخ سيد المختار الكنتي. وهو شرح لقصيدة محمد بن مالك الأندلسي صاحب الألفية، ومطلع القصيدة:

أطعت الهوى فالقلب منك هواء قسا كصفا بان عنه صفاء

فقد كان هدف الشارح أن يشرح هذه النص اللغوي شرحا صوفيا إلا أنه باستطراداته الواسعة يجعل القارىء يرتع في مرج من المعارف والطرائف الممتعة المفيدة، وفيه تتلخص ميزات العالم الأديب الموسوعي المتصوف، أي العالم الشنقيطي بمجمل ملامحه. ويجدر بنا أن نتوقف قليلا عند النهضة الأدبية والشعرية بصفة خاصة والتي بدأت في القرن الحادي عشر للهجرة لتبلغ أوجها في القرن الثالث عشر (التاسع عشر للميلاد).

وأشير هنا لمن يريد مزيد الاطلاع والتوسع في هذا الموضوع بقراءة أطروحة دكتوراه دولة قدمها السيد أحمدو ولد الحسن الملقب جمال في كلية الآداب بالجامعة التونسية سنة 1986 بعنوان «الأساليب في الشعر الشنقيطي خلال القرن الثالث عشر الهجري.»

والذي يطالع كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطي المتوفي سنة 1331 هـ/ 1913م يدهش لكثرة الشعراء ومستوى النصوص الشعرية من حيث الجودة والاتقان.

فقد ينبهر القارىء لجزالة الألفاظ وصفاء اللغة والشاعرية الجياشة لهذه القصائد الخارجة عما ألفناه في عصر الانحطاط من كيمياء لفظية وحذلقة بديعية. فالشعر الموريتاني في هذه الفترة، وإن لم يتضمن تجديدا في المعاني والأغراض بالنسبة إلى التراث الشعري القديم ــ فإنه كان على مستوى الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي والأندلسي جميعا. وإذا رجعنا إلى التصنيف التقليدي للعصور الأدبية، وجدنا أن مزايا حركة الانبعاث في الشرق التي كان رائدها البارودي ومن تبعه مثل

شوقي وحافظ إبراهيم والرصافي، لا تتجلى في كونها قد أضافت جديدا إلى الأغراض والمعاني الشعرية، بل إنها رجعت بالشعر العربي إلى أصالته ونصاعته في عصور ما قبل الانحطاط. وبذلك فقد كانت أهمية هؤلاء الشعراء كما يقول عباس محمود العقاد في كتاب شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي أنهم «ردوا الى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة الأقدمين» وبذلك فقد كانت حركة النهضة إحياء مهد السبيل فيما بعد لبوادر التجديد مع شعراء منتصف القرن العشرين والذين جاؤوا من بعدهم.

وإذا نظرنا بالمنظار نفسه إلى الشعر الويتاني لاحظنا أن ما اعتبر مزية للبارودي وشوقي وطبقتهما قد سبقهما إليه «ابن رازفة الشنقيطي المتوفي سنة 1143 هـ /1730 م بحوالي قرنين من الزمان. وقد تنبه الدكتور طه الحاجري إلى هذه المسألة فكتب في مجلة العربي عدد فيفري 1968 مقالا عن شعراء شنقيط وقال إنهم «حلقة مفقودة من تاريخ الأدب العربي» وقال إن دراسة هذا الشعر يمكن أن تغير التصنيف الحالي لعصور الأدب العربي.

هذا وإذا انتبهنا إلى أن كتاب الوسيط تم نشره في القاهرة سنة 1911م بعد وفاة البارودي بست سنوات وأثناء أوج العطاء الشعري لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران، افترضنا أن يكون شعراء شنقيط ساهموا في ترسيخ «يقين القدرة على مجاراة الأقدمين» بل يقين التفوق عليهم كما نجد من يقين امحمد بن الطلبة المتوفي سنة 1272 هـ/ 1856 م بالتفوق على من عارضهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام. فقد عارض قصيدة الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤال وما ترد سؤالي

بقصيدة مطلعها:

صاح قف واستلح على صحن جال

سبخة النيش هل ترى من جمال

وقصيدة حميد بن ثور:

الا هيما مما لقيت وهيما

وويحـا لمن لم يلق منهن وحمـــا

بقصيدة مطلعها:

تأوبه طيف الخيال بمريمـــــا

فبـات معنى مستجنا متيمـــــا

وقصيدة الشماخ بن ضرار:

ألا نـاديـا أطغـان ليلى تعـــرج

فقـد هجـن شوقـا ليتـه لم يهيج

بقصيدة مطلعها:

تطاول ليـل الـنـازع المتهيـــج

أمـا لضيـاء الصبح من متبلـــج

ولست أستبعد أن تكون معارضات ابن الطلبة المنشورة بالقاهرة في كتاب الوسيط قد أوحت إلى أحمد شوقي بمعارضة كبار شعراء العصر العباسي والشعراء الأندلسيين، لا فرق بين الرجلين إلا في المثل الشعري الأعلى، فهو لدى امحمد بن الطلبة الأعشى وحميد والشماخ، وهو عند شوقي أبو تمام والبحتري والمتنبي وابن زيدون وابن الخطيب.

5 ـ بعض الأعلام الذين كان لهم دور كبير في الإشعاع الثقافي:

من الصعب جدا حصر الأعلام الشناقطة الذين كان لهم دور كبير في نشر العلم في بلاد شنقيط وخارجها، ولذلك فسأكتفي بذكر القليل جدا من هؤلاء، منها إلى بعض المصادر والمراجع التي تعرضت بشيء من التفصيل لهؤلاء الأعلام.

فالنسبة إلى الشعراء سبق أن ذكرت كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ويمكن التوسع أكثر من ذلك مع كتاب الدكتور محمد المختار بن اباه الشعر والشعراء في موريتانيا طبع الشركة التونسية للنشر سنة 1984.

أما بالنسبة إلى الأعلام جملة فقد تعرضت لهم موسوعة العلامة المختار بن حامد وهي ما زالت تحت الطبع وكتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ورللبرتلي، كما خصص الأستاذ الخليل النحوي للموضوع حيزا كبيرا في كتابه بلاد شنقيط ـ المنارة والرباط (144 صفحة). ثم إن دار المعلمين العليا وجامعة نواكشوط مكتظتان برسائل التخرج المخصصة لهؤلاء الأعلام وتحقيق مصنفاتهم.

ويمكن أن نقتصر على بعض الأعلام حسب الجهات التي ولدو أو استقروا بها. ففي مدينة شنقيط نذكر:

ـ الطالب محمد بن المختار بن الأعمش المتوفي سنة 1107هـ

ـ عبد الله بن أحمد بن الحاج حما الله المتوفي سنة 1209 هـ

ـ سيدي محمد بن حبت المتوفي سنة 1288 هـ

وفي تجكجة:

ـ سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم المتوفي سنة 1233 هـ

وفي الحـوض:

ـ الشيخ سيد المختار الكنتي المتوفي سنة 1226 هـ

ـ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ المختار المتوفي سنة 1241هـ

ـ أبو بكر بن الحاج عيسى بن أبي هريرة الغلاوي المتوفي سنة 1146 هـ

ـ محمد يحي الولاتي المتوفي سنة 1330 هـ .

وفي تيشيت:

الحاج حسن بن آغبد الزيدي المتوفي سنة 1123 هـ

وفي الركيبة:

ـ الطالب مصطفى بن عثمان الغلاوي المتوفي سنة 1139هـ

ـ محمد الأمين بن أحمد زيدان المتوفي سنة 1235 هـ

وفي القبلة:

ـ المختار بن بونه الجكني المتوفي سنة 1220 هـ

ـ حرمة بن عبد الجليل العلوي المتوفي سنة 1243 هـ

ـ محنض بابه بن عبيد الديماني المتوفي سنة 1277 هـ

ـ الشيخ سيديا الكبير المتوفي سنة 1284 هـ

ـ محمدن فال بن متالي التندغي المتوفي سنة 1271 هـ

ـ يحظيه بن عبد الودود المتوفي سنة 1358 هـ

وفي تيرس (شمال البلاد):

ـ الشيخ محمد المامي بن البخاري اليعقوبي المتوفي سنة 1292 هـ

ـ الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل المتوفي سنة 1328 هـ

6 ـ شنقيط في إفريقيا والمشرق العربي:

أ ـ في إفريقيا الغربية:

كانت بداية إدخال إفريقيا في الإسلام مع توغل الجيش المرابطي جنوبا وإدخال أهل غانا في الإسلام، وعندما استعادت امبراطورية غانا شيئا من قوتها بعد ضعف المرابطين، كان الإسلام قد رسخ في أهلها بحيث أصبحوا دعاة إلى الإسلام، فأسلمت مملكتا مالي وكاوا وهكذا استمر الإسلام في الانتشار، وقد تعزز في القرن السادس عشر بإنشاء مملكة فوتا على ضفتي نهر السنغال وما لعبته من دور في بناء المساجد ودور العلم، وفي القرن الحادي عشر توغل الإمام ناصر الدين قائد الزوايا في حرب «شربيه» في السنغال ناشرا الدين الإسلامي.

ولعل من أهم عوامل الإ شعاع الروحي انتشار الطرق الصوفية في أواخر القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر للهجرة، واستمرارها حتى اليوم. فقد اتسع انتشار الطريقة القادرية على يد الشيخ سيد المختار الكنتي وأبنائه وتلميذه الشيخ سيديا، والشيخ محمد فاضل بن مامين وابنيه الشيخ سعد بوه والشيخ ما العينين، فانتشرت في السنغال ومالي ونيجيريا والكامرون. ثم تأتي الطريقة التيجانية على يد الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب المتوفي سنة 1247 هـ ثم

الشيخ حماه الله لتنتشر أيضا في إفريقيا بواسطة شيخ المجاهدين الحاج عمر الفوتي المتوفي سنة 1280 هـ/1864م وأسرة الحاج مالك سي. ولم يكن هؤلاء الأعلام مجرد أشياخ تربية روحية بل كانوا علماء وشعراء ومعلمين، وأتباعهم يعدون اليوم بالملايين.

ب ـ في الشرق العربي:

كانت رحلة أداء فريضة الحج تنتظم كل سنة وتنطلق في الغالب من شنقيط تضم كبار العلماء والشعراء يمرون بمراكش وفاس ثم بتونس والقيروان، ثم يصلون إلى الأزهر قبل أن ينتقلوا إلى الحجاز وفي جميع هذه المراحل يتم الاحتكاك برجال العلم أخذا وعطاء. وقد أفاض محمد يحي الولاتي في رحلته، في تعداد من لقيهم من العلماء والأعيان بتونس عندما مر بها سنة 1314 هـ ومكث بها 80 ليلة. (الرحلة ص 271ـ 300)

وكثيرا ما كان هؤلاء الحجاج يتصدرون للتعليم والإفتاء أني حلوا فتنبهر الناس بسعة معارف هؤلاء القادمين من الصحراء وغزارة محفوظهم. ومن أمثلة غزارة المحفوظ ما يقال عن عبد الرحمان بن الامام الغلاوي المتوفي في بداية القرن الرابع عشر، أنه كان في الاسكندرية في سهرة مذاكرة مع بعض الأدباء فقال أحدهم إنه يحفظ 10 قصائد سينية (أي على روي السين) للجاهلين فما كان من عبد الرحمان الا أن أنشده مطالع سبعين سينية للجاهلين مستعدا لإنشادها إذا كانت السهرة تتسع لذلك.

وكما ذكرت فإن النهضة في المشرق بدأت بإحياء التراث عن

طريق نشر كنوز التراث العربي الأصيل، فقد كان إسهام الشناقطة عظيما في هذه الحركة، ويمكن أن نلخص إسهامهم في نواح ثلاث:

1 ـ التدريس في الحلقات العلمية:

وسأكتفي بالإشارة إلى محمد محمود بن التلاميذ المتوفي سنة 1905م وأحمد بن الأمين المتوفي سنة 1913م اللذين درسا بالأزهر وجرت بين الأول منهما مناظرات وجدال مع الأزهريين كان الظاهر فيها عليهم دائما. وكذلك كان شأنه بالمدينة المنورة، ومكة المكرمة، كما جرت مناظرات بين ابن التلاميذ وابن الأمين في شأن مسألة لغوية حول «عمر» هل هو مصروف أو ممنوع من الصرف.

ويذكر طه حسين في مذكراته أن من الدروس القليلة التي كانت تستهويه في الأزهر شرح قصائد الجاهلين للشيخ الشنقيطي (يعني ابن التلاميذ) وكانت مناظراته وتفنيده العنيف لآراء علماء الأزهر تجد صداها في نفس طه حسين لنوازع الثورة التي يحسها تجاه الأزهريين.

2 ـ تاليف الكتب وتصحيح أمهات التراث:

فكثيرة هي مؤلفات أحمد بن الأمين ومحمد حبيب الله مايابي المتوفي سنة 1945م صاحب كتاب زاد المسلم في ما اتفق عليه البخاري ومسلم والشيخ آب بن اخطور المتوفي سنة 1974 صاحب كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

أما تصحيح أمهات الكتب العربية فقد صحح ابن التلاميذ معاجم لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزا

بادي والمخصص لابن سيده كما صحح كتاب الأغاني طبعة دار المعارف وديوان أشعار الهذليين وأغلب دواوين شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، كما اشترك مع الإمام محمد عبده في تصحيح كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

3 ـ إنشاء المحاظر والمدارس:

واذكر مثالا لذلك أحد الأعلام الذين وصلوا إلى الكويت وجنوب العراق، وهو محمد الأمين بن فال الخير المتوفي سنة 1941م وقد أنشأ في الكويت إحدى أولى المؤسسات التعليمية، وكان تأثيره واسعا في المنطقة مما دعا وزارة الشؤون الثقافية العراقية إلى نشر كتاب عنه سنة 1981 بعنوان «من أعيان الفكر الإسلامي في البصرة ـ محمد أمين الشنقيطي».

خاتمة:

إن معالجة موضوع واسع كهذا لا يمكن أن تتم في محاضرة واحدة، وحسبي أنني حاولت إبراز بعض الملامح التي أراها هامة للتعريف بملامح من هذا البلد الذي قضت عزلته وراء الصحراء أن يبقى مجهولا، ولذلك فكل مجهود مهما كان متواضعا قد يفضي إلى كشف جانب من ذلك الحجاب الذي يقبع خلفه بلد يستحق أن يعرف.